تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية لساويرس بن المقفع
وأهميته لدراسة التاريخ القومى

من بين المصادر التى يعتمد عليها الباحثون فى تاريخ مصر الإسلامية فى العصور الوسطى ، كتب أرخها كتاب ومؤرخون مسيحيون من مصر ، أو غيرها من البلدان ، مثل سعيد بن بطريق ، البطرك الملكانى فى مصر والمعروف باسم أوتيخا صاحب كتاب « التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق » (ت ٣٢٨ هـ = ٩٤٠م) ، ويحيى بن سعيد الانطاكى (ت ٤٥٨ هـ = ١٠٦٦م) صاحب «التاريخ» أو «صلة كتاب سعيد بن بطريق» ، وابن مماتى (ت٦٠٦هـ = ١٢٠٩م) صاحب كتاب « قوانين الدواوين » وابن العبرى (أبوالفرج بن هرون الملطى) (ت ٦٨٥ هـ/١٢٨٦م) صاحب كتاب « تاريخ مختصر الدول » ، وابن العميد المعروف بالمكين (ت ٦٧٢ هـ/١٢٧٣—١٢٧٤م) صاحب كتاب « تاريخ المسلمين » .

*

أما صاحبنا ساويرس بن المقفع فقلما يعرفه العلماء والطلاب الباحثون فى تاريخنا الوسيط . ولعل ذلك يرجع إلى أن ساويرس أرخ لبطاركة الكنيسة ، فظن الباحثون ــ خطأ ــ أن تاريخ البطاركة والكنيسة المصرية لا يرتبط بتاريخ مصر .

ولم يترجم لساويرس أحد من أصحاب كتب التراجم المعروفة وإنما نعرف عنه مما كتب هو عن نفسه ، ومما كتب عنه فى الكتاب المنسوب إليه وهو كتاب « سير الآباء البطاركة » أو « تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية » .

وقد كان ساويرس أسقفاً للأشمونين التى تقع بين المنيا وأسيوط فى الوجه القبلى . ويحدثنا عنه الأنبا ميخائيل أسقف مدينة تنيس فى زمن الخليفة الفاطمى المعز لدين الله ، وأحد الذين كتبوا فى تاريخ الكنيسة المصرية فى الكتاب المنسوب إلى ساويرس ، فيقول : « وكان من جملة الأساقفة أسقف قديس فاضل على كرسى الأشمونين يسمى سويرس ويعرف بابن المقفع . وكان كاتباً ثم صار أسقفاً ، وأعطاه الرب نعمة وقوة فى اللسان العربى إلى أن كتب كتباً كثيرة وميامر(١) ومجادلات(٢) .

وكذلك يعطينا الأنبا ميخائيل قائمة بمؤلفات ساويرس تصل إلى العشرين بالإضافة إلى المقالات والمواعظ والتفاسير .

*

والظاهر أن كل ما كتبه ساويرس كان يتصل بالناحية الدينية ، أى شرح العقيدة الأرثوذكسية والانتصار لها ، مثل كتاب « طب الغم وشفا الحزن » وكتاب « التبليغ رد على اليهود » وكتاب « الرد على سعيد بن بطريق » وكتاب « التوحيد » وكتاب « الاتحاد » وكتاب اختلاف الفرق » وكتاب « السير »(٣) ولعل الكتاب الأخير هو سير الآباء البطاركة الذى بين أيدينا الآن . أما بقية الكتب فلا نعرف عنها شيئاً .

ونحن لا نعرف سنة وفاة ساويرس ولكن يتضح لنا مما كتب فى سير الآباء البطاركة أنه عاش حتى زمن الخليفة الفاطمى المعز لدين الله أى فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى وفى أواخر القرن العاشر الميلادى .

---

(١) ميامر جمع ميمرا وهى كلمة ليست عربية معناها مواعظ .

(٢) ساويرس : تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية . المجلد الثانى . الجزء الثانى ص ٩٢ (مطبوعات جمعية الآثار القبطية) .

(٣) أنظر ساويرس : تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية . المجلد الثانى . الجزء الثانى ص ١٠٩ — ١١٠ (نشر جمعية الآثار القبطية) .

مصــادر كتاب ساويرس

وقد جمع ساويرس معلوماته وأخباره مما وجده في الأديرة المختلفة مثل دير القديس أبي مقار ودير نهيا ودير وادى هبيب (أو وادى النطرون) وغيرها من الديارات ، ومما وجـده في أيدى النصارى . ويذكر ساويرس أنه أضاف إلى معلومات الأوائل ما عرفه هو من سير من شاهدهم من الآباء البطاركة .

ويتضح مما كتبه ساويرس أن اللغة العربية كانت هي السائدة في ديار مصر في عصره (أى في القرن الرابع الهجرى والعاشر الميلادى) وأن غالبية المسيحيين في مصر أصبحوا يجهلون اللغة القبطية التي كانت اللغة القوميـة للمصريين حين فتح العرب أرض مصر ، وكذلك اللغة اليونانية التي كانت اللغة الرسمية منذ عهد البطالسة ، والتي كتب بها الإنجيل ، الشهيد مارى مرقس الأنجيلي الحوارى أول بطرك للاسكندرية . ويذكر ساويرس أنه لاقى مشقة كبيرة في ترجمة الوثائق القبطية واليونانية إلى العربيـة وأنه استعان ببعض المسيحيين ممن كان لهم دراية باللسان القبطي أو اليوناني .

وقد أتم كتاب ساويرس من أتى بعده من الـكتاب والأساقفة . ولـكن الـكتاب ينسب إلى ساويرس . ولعل ذلك يرجع إلى أن ساويرس كان أول من تـكبد جمع السير والوقوف عليها وترجمتها .

*

من الذى نشر كتاب ساويرس ؟

وقد نشر المستشرق إفتس B. Evetts كتاب ساويرس بعنوان « سير الآباء البطاركة » أو « تاريخ بطاركة الـكنيسة القبطية في الاسـكندرية » ضمن مجموعة Patrologia Orientalis أى كتابات « آباء الـكنيسة في الشرق »

وذلك فى الجزء الأول من هذه المجموعة الذى نشر فى باريس ١٩٠٧ م ، والجزء الخامس ، باريس ١٩١٠ م ، والجزء العاشر ، باريس ١٩١٥ م .

واعتمد Evetts على مخطوط هذا الكتاب الموجود فى المكتبة الأهلية فى باريس وقابله على مخطوط لندن والفاتيكان .

راعى افتس مقابلة النص العربى بترجمة انجليزية فى كل صفحة . كما عنى عناية كبيرة بالحواشى والتعليقات .

وتولت جمعية الآثار القبطية ، مشكورة ، نشر الأجزاء الباقية من هذا الكتاب بمعاونة الأستاذ يسى عبد المسيح أمين مكتبة المتحف القبطى سابقاً والأستاذ برمستر Burmester مدرس اللغات القديمة بجامعة الاسكندرية سابقاً والدكتور عزيز سوريال عطية أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة الاسكندرية سابقا.

ونشرت الجمعية القبطية هذا الكتاب بعنوان « تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية المعروف بسير البيعة المقدسة » . واعتمد الناشرون على مخطوطة محفوظة بالمتحف القبطى ، وعلى مخطوطة ثانية محفوظة بمكتبة الدار البطريركية القبطية .

ونشرت الجمعية القبطية المجلد الثانى ، الجزء الأول فى القاهرة ١٩٤٣ م ثم ظهر المجلد الثانى ، الجزء الثانى فى القاهرة ١٩٤٨ م ، ونشر أخيراً المجلد الثانى الجزء الثالث فى القاهرة ١٩٥٩ م . وقد نشر لكل جزء ترجمة انجليزية على حدة . والملاحظ أن الترجمة الإنجليزية فيها عناية بالحواشى والتفسيرات المختلفة أكثر من النص العربى المنشور ولكنها دون ما نشر على يد افتس .

منهج كتاب ساويرس :

يعتبر كتاب ساويرس من نوع كتب التراجم المعروفة فى التاريخ الإسلامى . ولكنه خاص بتراجم البطاركة فى مصر من أيام ظهور المسيحية فيهـــا زمن

الإمبراطور الرومانى أغسطس قيصر . وقد وصل مانشر من هذه التراجم إلى بداية حكم الخليفة الفاطمى الآمر بأحكام الله سنة ١٩٠٢ م أو ٤٩٦ هـ .

ويبدو من هذه التراجم التى صنفها وجمعها ساويرس ، أنها كانت بمثابة تقويم أو روزنامة للكنيسة المصرية . وأنها كانت تعتمد على المشاهدات والاتصال بأبطال الحوادث ، أو كتابة الأخبار المتواردة حينذاك ، فهى أشبه شىء « بالمذكرات » أو « اليوميات » . ولا نتبين من كتابتها الرجوع إلى مؤلفات سابقة أو معاصرة اللهم إلا فى النادر . فنرى ساويرس يستشهد أحياناً بسعيد ابن بطريق لتأكيد صحة بعض ما يكتبه من الأخبار (١).

*

ونلاحظ أنه منذ القرن السابع الميلادى (الأول الهجرى) — وخاصة منذ فتح العرب لمصر — يصبح تاريخ البطاركة أكثر اكتمالا وأعظم أهمية، إذ يدون الأخبار ويكتب التراجم كتبة معاصرون ، كما يبدأ فى هذا القرن السابع الميلادى تاريخ مصر فى العصور الوسطى الإسلامية .

ولا شك أن اطلاقنا كلمة العصور الوسطى فى التاريخ الإسلامى يهدف إلى الموازنة الزمنية فقط بينها وبين العصور الوسطى فى التاريخ الأوربى التى تمتد نحو عشرة قرون بين القرن الخامس الميلادى ، حين عمت الفوضى وساد الاضطراب بسبب غزوات البرابرة التى قضت على الدولة الرومانية، وبين فاتحة القرن السادس عشر الميلادى حين كانت النهضة الأوربية قد توطدت أركانها ، وقطعت أوربا شوطاً بعيداً فى استرجاع ما فقدته فى ميادين الحضارة منذ سقوط الأمبراطورية الرومانية .

أما تاريخنا الإسلامى فلا يقسم إلى عصور قديمة وعصور وسطى وعصور

---

(١) سير الآباء البطاركة ص ١٩١ (P.O.T.I.) .

حديثة ، وإن كان بعض المؤرخين يطلقون إسم « العصور الوسطى الإسلامية » على الحقبة من التاريخ الإسلامى المقابلة للعصور الوسطى الأوربية ، أى على الزمن الواقع بين قيام الإسلام فى بداية القرن السابع الميلادى وامتداد سلطان الدولة العثمانية على جزء كبير من ديار الإسلام فى القرن السادس عشر . ويدمج أولئك الباحثون تاريخ الإسلام بعد هذه الحقبة فى تاريخ العصور الحديثة .

*

ويهدف ساويرس من تراجم البطاركة وسيرهم إلى غرض دينى بحت وهو تمجيد الدين المسيحى والإشادة بالمذهب الأثوذكسى أو — كما يسميه ساويرس — الأمانة المستقيمة ، وبيان جهاد البطاركة فى سبيل حمل أمانتهم .

فهذا الكتاب يختلف فى هدفه عن الكتب التاريخية العامة أو الخاصة ومع ذلك فهو يشترك معها جميعاً فى أن الدين كان يمتزج بالتاريخ امتزاجا شديداً . وهذه ظاهرة نلمسها فى تاريخ أوربا فى العصور الوسطى كما نلمسها فى التاريخ الإسلامى . ومن هنا نرى أن ساويرس وإن كان قد أرخ للبطاركة وللكنيسة القبطية فى العصر الإسلامى إلا أنه اشترك مع مؤرخى ديار الإسلام ومؤرخى العصور الوسطى الأوربية فى أنه مزج بين الدين والتاريخ .

*

كذلك نرى مؤرخ البطاركة يشترك مع مؤرخى ديار الإسلام ومؤرخى أوربا فى العصور الوسطى فى سرد الأساطير والقصص العجيبة والخوارق والكرامات . فيحدثنا مثلا عن الدموع التى تسيل من صور القديسين والشهداء ، والدم الذى يقطر من هذه الصور والأيدى التى تمتد خارجها . كما يكثر ساويرس من ذكر كرامات بعض البطاركة ورجال الدين المسيحيين مثل إعادة البصر لمن فقده وإعادة الحياة لمن غرق ، وإعادة الصحة لمن استعصى شفاؤه .

وليس هذا الكلام بمستغرب على ساويرس ، فان ساويرس يمثل عقلية العصور الوسطى ، إذ كان الاعتقاد بالخرافات والكرامات لا يقتصر على الطبقة العامة كما هو معروف للآن وإنما كان هذا الاعتقاد شائعاً بين مختلف طبقات الشعب ، بل أننا نرى أمير مصر فى أوائل القرن الرابع الهجرى والعاشر الميلادى ، محمد بن طغج الأخشيد ، يكرم رجلا من دمياط قيل أن يده كانت مقطوعة وأنه غاب عن البلد زماناً ثم عاد ويده صحيحة (١) .

ولعل الأكثار من الكلام على كرامات البطاركة ورجال الدين المسيحيين كان الغرض منه حث الأقباط على الاستمساك بدينهم والالتفاف حول كنيستهم وتقوية روحهم المعنوية فى أوقات المحن والشدائد .

*

كذلك نرى ساويرس — مثل غيره من مؤرخى العصور الوسطى — يعلل الأشياء فى الغالب تعليلا الهيًا سماويًا فكل ما يحدث سببه رضا الله أو غضبه وسخطه ، ولا يحاول بعد ذلك تعليل الأشياء بالدرس والنقد والتمحيص . فيذكر مثلا أن الله كان يخذل جيوش الروم عندما فتح العرب مصر بسبب أماناتهم الفاسدة و بسبب عقيدتهم الخلقدونية (٢) . دون أن يحاول بيان أسباب انتصار العرب وخذلان الروم . وليست تلك العقلية ببعيدة عنا ، فعندما أرادت وزارة المعارف العمومية فى مستهل القرن العشرين إدخال مادتى الطبيعة والكيمياء فى الأزهر اعترض بعض رجاله على ذلك وقال أحدهم :

فمن يقل بالطبع أو بالعلة   فذاك كفر عند أهل الملة

ثم أدخلت هاتان المادتان ضمن برامج الدراسة فى الأزهر الشريف بعنوان : « علم خواص الأشياء التى أودعها الله فى المخلوقات » .

---

(١) أنظر سيدة كاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

(٢) أنظر ساويرس : سير الآباء البطاركة ص ٢٢٨ — ٢٢٩ ، ٤٩٣ (P.O.T.I.)

وبرغم اتقان ساويرس للغة العربية وصعوبة فهمه للغة القبطية واليونانية ، إلا أننا نلاحظ فى كتابته أخطاء كثيرة فى النحو كما نلاحظ وجود كلمات دخيلة من القبطية واليونانية .

ونلاحظ أن مؤرخ البطاركة يكثر من الألفاظ الإسلامية الشائعة مثل كلمة المؤمنين ويعنى بهم الأرثذكسيين ، والمصاحف ويعنى بها المجلدات ، كذلك يطلق لفظ المصطفى على القديسين فيقول مثلا القديس مرقص الانجيلى المصطفى .

أهمية كتاب ساويرس فى تاريخ مصر الإسلامية :

يتعرض كتاب ساويرس — فى خلال تراجم البطاركة — لتاريخ العصور الوسطى الإسلامية فى فترة تقرب من خمسة القرون ، تلك الفترة من التاريخ الإسلامى التى شهدت ميلاد أمة ، واتساع فتوحات ، وتوحيد شعوب ، وقيام حضارة زاهرة خلفت للانسانية تراثاً مجيداً .

وطبيعى أن يركز ساويرس اهتمامه بمصر الإسلامية ، فيبين لنا كيف تم فتحها على يد العرب ، ثم كيف كانت معاملة الفاتحين العرب للأقباط من النواحى الدينية والمالية والاجتماعية والإدارية .

كذلك يفصل ساويرس الكلام على الأحداث الهامة السياسية والدينية والاقتصادية والاجتماعية التى حدثت فى العصر الذى اصطلحنا على تسميته «عصر الولاة» وهو الذي يبدأ بفتح العرب لمصر وينتهى بقدوم أحمد بن طولون إليها وتأسيسه الدولة الطولونية فيها . ويبين ساويرس انتقال مصر من التبعية للخلافة إلى الاستقلال الذاتى أيام الدولتين الطولونية والاخشيدية ، ثم قيام الخلافة الفاطمية فى مصر التى نافست الخلافة العباسية فى بغداد لفترة من الزمن . كذلك يبين ساويرس علاقة البطاركة المصريين بولاة مصر وأمرائها وخلفائها

من ناحية ، ثم علاقة هؤلاء البطاركة بالنوبة والحبشة وشمال افريقية والشام من ناحية أخرى .

*

ولا يغفل ساويرس الكلام على علاقة المسلمين فى مصر باخوانهم المسيحيين ، وعلى الكنائس التى بنيت أو جددت فى العصر الإسلامى ، وعلى تسامح الولاة والأمراء والخلفاء ، مع المسيحيين فى مصر ، وعلى تشدد البعض منهم.

كذلك يتضح لنا من كتابات ساويرس أن حكام مصر الإسلامية كانوا يتخذون الأصدقاء من بين أهل البلاد الأقباط ، ومن الرهبان والبطاركة ، ورجال الدين للسيحيين عامة .

*

وقد أشار ساويرس فى تاريخه إلى الرخاء فى مصر فى معظم الأحيان ، كما فصل الكلام عن القحط والوباء والمجاعات فى بعض السنين ، بل إن ساويرس يهتم بهذه الظواهر التى ترد فى حوليات الكنيسة المصرية أكثر من اهتمام سائر المؤرخين بها ، وينفرد بذكر بعض المجاعات التى يرد ذكرها لدى غيره من المؤرخين المصريين .

ولاشك أن ساويرس يشترك مع بقية المؤرخين فى ذكر كافة الأحداث الهامة ، مع العناية بشئون مصر على غرار المؤرخين المصريين مسلمين كانوا أومسيحيين . لكنه يمتاز عليهم جميعاً بأن كتابه له قيمة الحوليات ، والمذكرات ، والمصادر المعاصرة ، فى وقت تتلمس فيه المصادر المعاصرة للفتح العربى فى مصر وما بعد الفتح بحوالى قرنين ونصف من الزمان فلا نكاد نجدها اللهم الا بعض الأوراق البردية ، وكتاب « التاريخ » للمؤرخ المسيحى حنا أسقف نقيوس(١)، الذى توفى فى أواخر القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى) .

---

(١) نقيوس : قرية ابشادى الآن — مركز تلا بالمنوفية .

وقد وضع حنا النقيوسى كتابه فى تاريخ مصر باللغة القبطية ، وجاء فيه ذكر الحوادث التى وقعت زمن الفتح العربى لمصر . وقد ترجم هذا الكتاب إلى اليونانية والعربية ، ثم قام أحد القساوسة المصريين بترجمة النسخة العربية إلى اللغة الأثيوبية . ولم يبق مما كتبه هذا المؤرخ المصرى سوى النسخة الأثيوبية التى نشرها الدكتور M. H. Zotenberg مع ترجمة فرنسية لها .

أما أقدم مؤرخ مصرى نعرفه بعد ذلك فهو ابن عبد الحكم صاحب كتاب « فتوح مصر وأخبارها » والمتوفى سنة ٢٥٧ ﻫ (٨٧٠ — ٨٧١ م) .

*

ومما يزيد فى قيمة كتاب ساويرس أنه يبين منذ فتح العرب لمصر وجهة نظر المسيحيين والرهبان المصريين نحو الحكومات الإسلامية ، ونحو إخوانهم من المصريين المسلمين .

ولا يهمنا الآن الحديث فيما اشترك فيه ساويرس مع بقية مؤرخى الخلافة ومؤرخى مصر الاسلامية ، وإنما يهمنا الكلام فى حديثنا هذا على بعض ما انفرد ساويرس بالكتابة فيه أو توضيحه .

ولعل من أهم الأمور التى انفرد ساويرس ببيانها أو توضيحها بحكم تأريخه للبطاركة وللكنيسة وللأقباط ، ما كتبه عن مركز المسيحيين فى مصر الاسلامية من الناحية الاجتماعية ، ومدى تمتعهم بالحرية الدينية ، وقيامهم بشعائرهم ، والاحتفال بأعيادهم ، وبناء أو تجديد كنائسهم ، وعلاقة المسيحيين بإخوانهم المسلمين فى مصر وفى غيرها من البلدان ، وموقفهم من الحكومات الاسلامية المتعاقبة فى مصر الاسلامية .

*

كذلك أفاض ساويرس فى حديثه عن انتشار الاسلام فى مصر ، بل

إنه فى بعض الأحيان يعطينــا أرقاماً بعدد الذين تحولوا إلى الدين الإسلامى فى ظروف معينة .

*

إذا قرأنا ساويرس سوف نخرج بأن العرب حين جاءوا لفتح مصر عمدوا إلى التفاهم مع الأقبــاط ، أهل البــلاد الأصليين . أما حربهم فــكانت موجهة ضد البيزنطيين المسيطرين على مصر حينذاك .

وكانت أول حسنة من حسنات العرب نحو أهل البلاد بعد فتحها ، أن أعطى عمرو بن العاص بطل فتح مصر ، الأمان للأب بنيامين بطرك الأقباط الذى كان مختفياً بالصعيد منذ قدوم قيرس ، أو المقوقس، والياً على مصر من قبل الأمبراطور البيزنطى هرقل .

وقد طرب أهل مصر جميعاً لعودة راعيهم بعد غيبة دامت ثلاثة عشر عاماً . وبالغ عمرو بن العاص ، قائد العرب فى مصر وبطل فتحها ، فى الحفاوة به ، وأعطاه الحرية ليشرف على الـكنائس ويرعى الأقباط .

ولا نستبعد أن يكون الأقباط قد وقفوا من وراء راعيهم، يشدون أزر العرب حين أغار البيزنطيون أو الروم على الأسكندرية يريدون استرجاع مصر بعد أن فتحها العرب بثلاث سنوات .

وقد أكد ساويرس أن الحـكومة الإسلامية منذ البداية، انتصرت للأقباط الأرثوذكس أو اليعاقبة على أعدائهم فى المذهب وهم الملــكانيين .

وكما اعتبر الأقباط أن الملــكانيين هم أتباع الملك البيزنطى ، وأنهم ليسوا أعداءهم فى المذهب الدينى فقط وإنما أعداءهم فى القومية ، كذلك آزر العرب الأرثوذكس باعتبارهم أصحاب البلاد ، واعتبروا الملــكانيين سنداً لأعدائهم الروم[1] .

---

(١) أنظر ساويرس : تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية ج٢ ص ٧٨ (الجمعية القبطية) .

ويذكر ساويرس أن الملكانيين فى العصر الإسلامى فى مصر، لم يتمتعوا بالحرية الدينية إلا فى فترات وتحت ظروف معينة .

*

ولم تتدخل الحكومات الاسلامية فى الشعائر الدينية عند أهل الذمة، بل كان بعض الأمراء والخلفاء يحضر مواكبهم وأعيادهم .

أما أبناء مصر من المسلمين فكانوا لا يجدون غضاضة فى الاشتراك مع الأقباط فى تلك الاحتفالات .

*

ولم تكن للدولة الإسلامية سياسة ثابتة بشأن بناء الكنائس والأديرة فكانت تسمح للمسيحيين فى معظم الأحيان ببناء كنائس جديدة، وكانت تمنعهم فى بعض الأحيان حتى من إصلاح الكنائس القديمة .

*

كذلك يبين لنا ساويرس أن الأقباط شغلوا كثيراً من الوظائف فى العصر الإسلامى، وخاصة الوظائف المالية . ويورد ساويرس فى مناسبات مختلفة أسماء كثير من كبار الموظفين الأقباط .

*

ويشيد ساويرس بتسامح الخلفاء الفاطميين اللهم إلا عهد الحاكم بأمر الله الذى كان يمتاز بالتقلب مع جميع المذاهب . بل ان ساويرس يذكر أنه فى العصر الفاطمى أصبح « جميع مقدمى المملكة والناظرين فى دواوينها وتدبير أمورها كلهم نصارى[1] » .

---

(١) ساويرس : المجلد الثانى — الجزء الثالث ص ١٧٣ (نشر الجمعية القبطية) .

ويذكر ساويرس أن الحكام المسلمين لم يتدخلوا فى شئون الأقباط الدينية إلا فى النادر حينما يطلب منهم فض النزاع بين الأساقفة ، وذلك حرصاً على الأمن العام .

كذلك لم يعرف عن حكام مصر أنهم عارضوا فى تعيين أحد البطاركة بعد أن يتم انتخابه بوساطة الأساقفة إلا إذا اختلف الأساقفة فيما بينهم (١).

ويؤكد ساويرس أن الدين لم يفرق بين المصريين فى الشعور بأنهم أبناء وطن واحد .

*

أما عن انتشار الإسلام فى مصر منذ أواخر عصر الولاة ،فيتضح لنا مما كتبه ساويرس أن العامل المالى من أهم العوامل التى حولت أغلبية الأقباط إلى الدين الإسلامى وطبيعى أننا لا نشك فى كتابات ساويرس فى هذا الصدد ، إذ أن ساويرس لم يكن ليغفل الكلام على أى اضطهاد يصيب الأقباط لتحويلهم إلى الدين الإسلامى بالقوة .

*

ويتضح من كتابات ساويرس أن الرهبان كانوا يبغضون الحكومة الإسلامية لأنهم كانوا يفلتون فى البداية من دفع الجزية إلى أن بدأ والى مصر عبد العزيز ابن مروان (٦٥ — ٨٦ هـ = ٦٨٤ — ٧٠٥ م) سنة فرض الجزية عليهم .

والمعروف أن الرهبنة كانت منتشرة حينذاك فى مصر . فالرهبانية نتيجة طبيعية للتعاليم المسيحية الأولى . وقد ساعد على انتشارها ما وقع للمصريين من ظلم واضطهاد زمن البيزنطيين ، ففضل الكثيرون أن يعيشوا فى عزلة عن العالم منفردين أو جماعات فى أديرة ولما كان الراهب لا يملك شيئاً ويعيش فى عزلة

---

(١) ساويرس : ص ٢١— ٢٤ (P.O.T.V.)

عن العالم ، لذا لم تفرض عليه أى ضريبة . على أن الأديرة التى كانت تزداد كثرة على مر الأيام ، ما لبث أن وقف عليها أملاك كثيرة ، وما ابثت أن احتوت الجوهرات والأموال والنفائس . لكن الحكومة فى عهد الرومان والبيزنطيين أعفت الأديرة والرهبان من الضرائب .

ولما فتح العرب مصر حافظوا على هذا التقليد . وما لبث العرب أن فطنوا إلى أن الأديرة أصبحت تملك ثروات ضخمة وإلى أن كثيراً من الأقباط لجئوا إليها كى يتخلصوا من الضرائب .

ولذا نرى والى مصر عبد العزيز بن مروان — وأخ الخليفة عبد الملك بن مروان — يأمر بإحصاء الرهبان وفرض الجزية عليهم . كما أنه ألزم الأساقفة بأن يؤدوا قدراً معيناً من المال سنوياً بالإضافة إلى خراج أملاكهم .

*

ويذكر ساويرس فى مناسبات مختلفة أن التشريعات المالية الخاصة بالأقباط أو الأساقفة أو الرهبان أو البطرك كانت تصدر بتحريض من الأقباط ورجال الدين المسيحيين أنفسهم .

وكانت الحكومة الإسلامية تفرض أشد العقاب على الرهبان أو رجال الدين الفارين من الضرائب ، كما كانت تتشدد فى جمع الجزية من الأقباط .

ويبين ساويرس أن كثيراً من الأقباط أسلموا ليتخلصوا من الجزية والضرائب المفروضة عليهم ، كما يذكر أن الأقباط الذين بقوا على دينهم قاموا بمقاومة سلبية ضد الحكومة ، تنطوى على الهروب من مكان إلى مكان ، وهجر الأراضى الزراعية ، وذلك منذ خلافة الوليد بن عبد الملك الأموى (٨٦ — ٩٦ هـ = ٧٠٥ — ٧١٤ م) وفى أثناء ولاية أخيه عبد الله بن عبد الملك (٨٦ — ٩٠ هـ) .

ـكن والى مصر أمر بوسم الغرباء الذين وجدوا فى الأقاليم المختلفة ، على أيديهم وجباههم وأرسلهم إلى أماكن مختلفة(١) .

واستمرت حركة الهروب فى ولاية قرة بن شريك الذى أتى بعد عبد الله بن عبد الملك (٩٠ — ٩٦ هـ) . وتشدد قرة فى قمع تلك الحركة والقضاء عليها .

*

ونلاحظ أن حركة الهروب لم تكن جديدة فى التاريخ المصرى فكثيراً ما كان الفلاحون يهجرون قراهم فى العصر البيزنطى فراراً من دفع الضرائب .

وقد اتخذت حركة الهروب فى عهد قرة بن شريك شكلا واسعاً . فيذكر ساويرس أن أسرات بأكلها كانت تهرب من مكان إلى مكان فراراً من دفع الضرائب . واضطر قرة إزاء هذا إلى إنشاء هيئة خاصة لوقف تلك الحركة وإعادة كل شخص إلى موضعه . وظل قرة يقاوم تلك الحركة بنشاط إلى أن توفى سنة ٩٦ هـ = ٧١٤ م .

ويؤيد كلام ساويرس ما استخلصناه من الأوراق البردية العربية واليونانية التى ترجع إلى عهد هذا الوالى(٢) .

وبعد وفاة قرة والخليفة الوليد ، ولى خراج مصر أسامة بن زيد التنوخى فى خلافة سليمان بن عبد الملك .

وقد تشدد أسامة بن زيد فى طلب الجزية والخراج . وأسلم الكثيرون فى أيامه كى يتخلصوا من الأعباء المالية ، ولكن حركة الهرب استمرت ، من جانب الذين أثقلت كاهلهم الأعباء المالية ولم يرغبوا فى اعتناق الدين الاسلامى .

وقد أمر أسامة ألا يأوى أحد ، غريباً فى الكنائس أو الفنادق أو السواحل .

---

(١) ساويرس ص ٥٦ . . . (P.O.T.V.)

(٢) أنظر مثلا ، Grohmann: Arabic Papyri. vol. III. p. 24, Bell: Translations of the Greek Aphrodito Papyri (Der Islam, Band II.) pp. 270, 274-275.

ويذكر ساويرس أنه لشدة الخوف من أسامة بن زيد طرد الناس من كان عندهم من الغرباء أو الهاربين(١) .

ولكى لا يتمكن أحد من الهروب من منطقة إلى أخرى عملت سجلات للأهالى أشبه بالبطاقات الشخصية اليوم . فألزم كل شخص يريد الانتقال من جهة إلى أخرى فى أنحاء القطر ، أو يريد ركوب سفينة أو النزول منها ، أن يحمل معه سجله . أما من فقد سجله أو أتلفه فقد ألزمه الوالى بالحصول على سجل آخر مقابل دفع خمسة دنانير(٢) .

والواقع أن ساويرس هو المؤرخ الوحيد الذى كتب وفصل لنا الكلام على حركة الهروب ، تلك الحركة التى تنطوى على مقاومة الأقباط لحكومة العرب مقاومة سلبية بعدما أصبح الالتجاء إلى الأديرة ، لا يعفيهم من الالتزامات المالية منذ خلافة عبد الملك بن مروان وولاية أخيه عبد العزيز على مصر .

*

وكان المفروض أن من يسلم يعفى من الجزية . والظاهر أن نفراً كان قد أسلم حتى زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩ — ١٠١ هـ = ٧١٧ — ٧١٩م) بدليل أن حيان بن سريج متولى خراج مصر كتب إلى عمر بن عبد العزيز يقول : « أما بعد فان الاسلام قد أضر بالجزية . . . » وكان هذا الوالى يرى أن تبقى الجزية على من يسلم . ولكن الخليفة أرسل إليه رداً شديداً يقول فيه : « فضع الجزية عمن أسلم ، قبح الله رأيك ! ! فان الله إنما بعث محمداً صلى الله عليه وسلم « هادياً ولم يبعثه جابياً . . »(٣)

---

(١) ساويرس ص ٦٨ ... (P.O.T.V.)

(٢) ساويرس ص ٧٠ (P.O.T.V.)

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر (طبعة تورى) ص ١٥٦ ، المقريزى الخطط ج ١ ص ٧٨ (ط . بولاق) .

ولـكن سياسة أخـذ الجزية ممن يسلم كانت قد بدأت على يد الحجاج بن يوسف الثقفى والى العراق من قبل الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥ — ٨٦ هـ = ٦٨٤ — ٧٠٥ م) وذلك حتى لا يؤثر اعتناق الدين الاسلامى فى ميزانية الدولة .

أما عبد العزيز بن مروان والى مصر من قبل الخليفة عبد الملك بن مروان فانه لم يقدم على تنفيذ تلك الخطوة ، وإن كان من المحتمل أن هذه السياسة كانت قد بدأت فى مصر قبل خلافة عمر بن عبد العزيز بدليل أن إعفاء من يسلم من الجزية كان يترتب عليه إسـلام الـكثيرين . كذلك لم تستمر سياسة عمر بن عبد العزيز فى الخلافة الاسلامية عامة وفى مصر خاصة بعد وفاته والتى تنطوى على إعفاء من يسلم من الجزية .

فيذكر ساويرس مثلا أنه فى خلافة مروان بن محمد ، أعلن والى مصر حفص بن الوليد (١٢٧ — ١٢٨ = ٧٤٥ — ٧٤٦ م) إعفاء كل من يسلم من الجزية ، فاعتنق نحو أربعة وعشرين ألفاً من الأقباط الدين الإسلامى (١) .

كذلك يذكر ساويرس أن الخليفة العباسى الأول أبا العباس عبد الله السفاح قرر أن يعفى من الجزية كل من يعتنق الدين الإسلامى ويقيم شعائره ، فتخلى كثير من المسيحيين ، أغنياء كانوا أو فقراء ، عن دينهم واعتنقوا الدين الإسلامى بسبب فداحة الجزية والأعباء الملقاة عليهم (٢) .

*

ومما لا نشك فيه أن الأمثلة التى يوردها ساويرس ، والتى تبين أن الأقباط الأغنياء ضجوا من الجزية والضرائب كما ضج الفقراء ، تظهر أن الجزية كانت المورد الرئيسى للمال الذى تعنى به الحـكومة الإسلامية ، وأنها كانت أمراً ثقيلا ، ولم تـكن بالضريبة الهينة وإلا لما حملت الـكثيرين على التخلى عن دينهم .

---

(١) ساويرس ص ١١٦ — ١١٧ ... (P.O.T.V.)

(٢) ساويرس ص ١٨٩ — ١٩٠ ... (P.O.T.V.)

وتؤكد كتابات ساويرس أن الحكومة الإسلامية فى مصر لم تحدد الجزية على أهل الذمة بعد الفتح ، وإنما اكتفت بفرضها وتركت تقديرها للظروف . وهذا يذكرنا برواية كتبها أقدم مؤرخ مصرى مسلم وهو ابن عبد الحكم ، إذ يقول أن أحد أصحاب الكور الأقباط (والكورة لفظ مشتق من اليونانية ومعناه قسم من أقسام مصر) قدم على عمرو بن العاص فقال له : « أخبرنا ما على أحدنا من الجزية .. » . فقال عمرو وهو يشير إلى ركن الكنيسة : « لو أعطيتنى من الأرض إلى السقف ما أخبرتك ما عليك . إنما أنتم خزانة لنا إن كثر علينا كثر عليكم ، وإن خفف عنا خففنا عنكم (١) » .

على أن الأقباط بدءوا منذ سنة ١٠٧ هـ (٧٢٥ م) فى التخلى عن مقاومتهم السلبية وأخذوا يقاومون حكومة العرب مقاومة إيجابية وذلك بالقيام بالثورات العلنية ضد الحكومة .

والمعروف أن العرب تركوا للمصريين أراضيهم ، وأمنوهم عليها وفرضوا عليها الخراج . ولم تكن أرض مصر فى بداية الفتح العربى لها أرض خراج فحسب — أى أرض تفرض عليها الضريبة العقارية — وإنما نشأ فيها أرض العشر ، اما قطيعة منحت لبعض المسلمين ، أو أرض حصلوا عليها من الحكومة أو الأقباط بطريق الشراء ، أو أرض موات (٢) احتازوها .

ونلاحظ أن الأراضى التى كانت ملكا خاصاً للاباطرة أو التى هرب أهلها أو هلكوا زمن الفتح العربى ، آلت إلى حكومة العرب فى مصر . وقد زادت تلك الأراضى زيادة كبيرة أثناء الحكم العربى نفسه بما أضيف إليها من الموات أو الأرض المهجورة .

وكانت الأراضى التى يمتلكها المسلمون فى بداية الفتح العربى لمصر ، لا يدفعون

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر (طبعة تورى) ص ١٥٣ — ١٥٤ .

(٢) الموات بعكس العامر من الأرض أى الأرض المهجورة التى تحتاج إلى تعمير وإصلاح .

عنها خراجاً وإنما كانوا يدفعون عنها العشر زكاة ، كما يزكى المسلم عن أنواع الأموال الأخرى . ومن الوجهة النظرية كان القبطى الذى يعتنق الاسلام تصبح أرضه عشرية

ولا شك فى أن ذلك حدث طويلا ، ثم رأت الحكومة أن فى هذا حل الخطر على مالية البلاد ، فأصبح نوع الضريبة متصلا بالأرض نفسها ، وأصبح القبطى إذا اعتنق الاسلام لا تعفى أرضه من الخراج .

والواقع أن هذه العملية يمكن الدفاع عنها من وجهة النظر المالية والاقتصادية ، لأن دخل الحكومة وماليتها يجب أن يكونا مستقلين إلى حد كبير عن الظروف الخاصة غير المنظورة كاعتناق الأشخاص الدين الاسلامى ، مما يصعب على الحكومة تقدير أثره فى ماليتها . بل ان هذه القاعدة لم تلبث أن طبقت على العرب أنفسهم بحيث أنهم إذا اشتروا أرضاً عليها خراج ظلوا يدفعون هذا الخراج الواجب عليها ولم تصبح هذه الأرض عشرية .

*

وحين بدأ الأقباط يثورون ضد حكومة العرب بسبب مطالبها المالية المجحفة ، وجدوا فى العرب الذين زاد عددهم فى مصر وأصبحوا يملكون أراضى خراجية ، شريكا لهم فى تلك الثورات . ولهذا نرى سائر مؤرخى مصر الاسلامية يشتركون مع ساويرس فى ذكر تلك الثورات بل يفصلون الكلام أحياناً فيما لا يفصل فيه مؤرخ البطاركة .

وقد تعددت ثورات الأقباط مع ثورات العرب وشملت الوجهين البحرى والقبلى . وكان أعنف هذه الثورات تلك التى كان يقوم بها أهل البشمور أو البشرود ، وهى المنطقة الرملية الساحلية بين فرعى دمياط ورشيد .

*

ولم يزل الأقباط يقومون بالثورة بعد الأخرى طوال القرن الثانى الهجرى

والثامن الميلادى ، وكانت حكومة العرب تقابل القوة بالقوة ، وتشددت فى إصلاح الأرض الموات وفى مراقبة الزراعة والهجرة .

*

وكان يتبع اخماد تلك الثورات فى العادة تحول عدد كبير من الأقباط إلى الدين الإسلامى .

وكان آخر تلك الثورات وأعظمها تلك التى انتهت فى بداية القرن الثالث الهجرى (٢١٧ هـ) والتاسع الميلادى (٨٣٢ م) بمجيء الخليفة المأمون وإخضاعه للثائرين والتى كان من نتائجها أن أصبح المسلمون أغلبية فى القطر المصرى .

*

ويخبرنا ساويرس أن الخليفة المأمون صحب معه إلى مصر البطرك ديونوسيوس بطرك انطاكية(١) وأنه استعان به وببطرك الأقباط الأنبا يوساب ، لإخماد ثورة البشموريين باللين والمفاوضة ، ولما لم ينفع اللين سير إليهم قائده الأفشين لمحاربتهم ، ثم سار إليهم بنفسه وقضى على حركتهم .

*

ويتضح لنا مما كتبه ساويرس أن الشعور الوطنى كان ضعيفاً بين المصريين آنذاك ، فلم يكن فى ثورات الأقباط ضد حكومة العرب عنصر وطنى ، بل كانت كلها بسبب الضرائب ، أما لحمل الحكومة على تخفيفها وعدم اتباع القسوة فى جبايتها ، واما للهرب من دفعها . ولعل ضعف هذا الشعور الوطنى كان أكبر عون للعرب للقضاء على حركات الأقباط .

---

(١) ساويرس ص ٤٩٢ ... (P.O.T.X.)

ويؤكد سلبية الشعب المصرى حينئذ ما نعرفه من أن أهل البلاد لم يشتركوا فى الحركات السياسية والدينية التى قامت فى الخلافة ، والتى اشترك فيها الجند العربى فى مصر والأجناد الأخرى الذين أتوا إليها فى عهد الدولة العباسية ، مثل الثورة إلى انتهت بمقتل الخليفة عثمان بن عفان ، والنزاع بين على ومعاوية ، والخلاف بين الأمين والمأمون .

أما الأقباط فقد اشتركوا فقط فى معاونة العباسيين الذين كانوا قد نجحوا فى إسقاط الدولة الأموية فى المشرق والذين أتت جيوشهم وراء الخليفة الأموى مروان بن محمد فى مصر .

ولا يدعنا ساويرس نتلمس الأسباب التى دعت الأقباط إلى معاونة العباسيين فى مصر فيذكر أن العباسيين وعدوا الأقباط بتخفيف الجزية والخراج عنهم(١) .

*

والواقع أننا لا نجد مؤرخاً غير ساويرس يفسر لنا السبب الذى حمل أغلبية القبط على التحول إلى الدين الإسلامى . فساويرس يؤكد دائماً أن الهروب من الجزية ومن الضرائب كان أكبر عامل على انتشار الإسلام فى مصر .

وهو يزن دائماً الولاة والأمراء والخلفاء الفواطم بالميزان المالى ، ولهذا ترى مؤرخ البطاركة قد يحكم على أمير أو خليفة واحد حكمين على طرفى نقيض ، لأن هذا الأمير قد يكون رحيما بأهل الذمة فى وقت من الأوقات ، وقد يشتد فى جمع الضرائب والجزية فى وقت آخر ، ومثل ذلك كلام ساويرس على الخليفة عمر ابن عبد العزيز ، وهشام بن عبد الملك ، والخليفة المتوكل على الله العباسى وأمير مصر أحمد بن طولون .

---

(١) ساويرس ص ١٦٠ ، ١٦٧ — ١٧٠ ، ١٧٢ — ١٧٤ ، ١٨٧ — ١٨٨

*

وواضح من كتابات ساويرس أن الأساقفة والبطاركة ورجال الدين المسيحيين كان يفرض عليهم أموال كثيرة ، وكان رجال الدين يلجئون بدورهم إلى الشعب القبطى ليدفع هذه الأموال . وكانت أحسن فرصة للخلاص من كل هذه الأعباء الدخول فى الدين الإسلامى .

ومن الأمثلة الصارخة التى يبين فيها ساويرس إسلام الكثيرين بسبب الفقر وقلة ما معهم من المال ما حدث فى خلافة المنتصر العباسى (٢٤٧ — ٢٤٨ هـ — ٨٦١ — ٨٦٢ م) حينما ولى خراج مصر أحمد بن محمد بن المدبر ، إذ فرض هذا الوالى ضرائب باهظة على الكنيسة وعلى الأقباط عامة مما دفع الكثيرين إلى التحول إلى الاسلام .

*

والواقع أن مغالاة ابن المدبر فى ابتزاز الأموال من مصر لم تكن وقفاً على المسيحيين وإنما كانت عامة على أهل مصر كلهم كما يذكر ساويرس وسائر المؤرخين(١)

والمعروف أنه أنشىء فى العصر العباسى ديوان خاص للنظر فى شئون أهل الذمة سمى « ديوان الجوالى » وكان على رأسه موظف من كبار المسلمين .

*

ويحدثنا ساويرس عن شخصيات من رجال الدين الأقباط الذين خرجوا للشكوى فى مقر الخلافة العباسية من الأعباء المالية ، ومثل ذلك خروج أحد رجال الدين المسيحيين فى مصر واسمه ابراهيم إلى مقر الخلافة فى أيام الخليفة المعتز

(١) ساويرس — المجلد الثانى ج ١ ص ٢٧ — ٢٨ (نشر الجمعية القبطية) .

(٢٥٢ — ٢٥٥ هـ — ٨٦٦ — ٨٦٩ م) يشكوا تعسف ابن المدبر ، فكتب الخليفة سجلا بالتخفيف عن النصارى ، ثم أكد هذا السجل الخليفة المهتدى (٢٥٥ — ٢٥٦ هـ) الذى ولى بعد المعتز والذى أمر بأن يرد إلى النصارى ما اغتصب منهم من المنقولات والأراضى (١) .

*

وقد أتيح لأهل الذمة فى مصر وفى مختلف أنحاء الخلافة أن يتقلدوا وظائف مختلفة فى الدولة وأن يزداد نفوذهم حتى وصل بعضهم إلى الوظائف العليا فى الإدارة، كما وصل آخرون إلى أن يصبحوا الكتاب الرئيسيين والوزراء عند بعض الولاة والأمراء والخلفاء .

وكان هذا يؤدى فى بعض الأحيان إلى احتجاج الفقهاء وثورة الشعب للمطالبة بالحيلولة دون سيطرة أهل الذمة ، مما كان يستتبع اصدار تشريعات تحد من نشاط أهل الذمة وتبعدهم عن وظائف الحكومة وتلزمهم بالتزام زى يميزهم عن المسلمين .

ومن ذلك ما حدث فى عهد الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز الذى أمر بعزل أهل الذمة من مناصب الدولة الهامة ومنعهم من انشاء الكنائس أو المعابد الجديدة ومن لبس العمائم . وقد نسبت هذه الاجراءات خطأ إلى عمر بن الخطاب. ويحدثنا ساويرس عن عمر بن عبد العزيز بأنه كان يفعل خيراً عظيما أمام الناس ، ويفعل السوء أمام الله ، إذ أمر باعفاء الأساقفة والكنائس من الخراج ، وعمر المدن التى خربت ، وأبطل الجبايات (معناها الضرائب المستحدثة) فعاش الأقباط فى أمن وهدوء ، ولكنه ما لبث أن أرسل كتابا يأمر فيه الأقباط بالتخلى عن أعمالهم فى الدولة ماداموا على دينهم ، أما من يريد منهم الاحتفاظ بعمله

(١) ساويرس — المجلد الثانى ج ١ ص ٣٢ — ٣٣ (نشر الجمعية القبطية) .

فليكن على دين محمد ، ولهذا سلم الأقباط ما بيدهم من الوظائف والأعمال إلى المسلمين(١).

كذلك يذكر ساويرس أن الخليفة المتوكل على الله العباسى (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ = ٨٤٧ — ٨٦١ م) أمر بهدم الكنائس وأن يتميز المسيحيون واليهود فى لباسهم عن المسلمين كما أمر أن يشغل الوظائف المسلمون فقط . ويذكر ساويرس أن كثيرين أسلموا حينئذ اما لحاجتهم وفقرهم ، واما رغبة منهم فى الإبقاء على مناصبهم(٢).

والواقع أن مؤرخى الخلافة ومؤرخى مصر الإسلامية يشتركون مع ساويرس فى تفصيل اضطهاد المتوكل لأهل الذمة .

*

لكن من اللاحظ أن التشريعات التى كانت تصدر ضد أهل الذمة ، لم تكن تنفذ كاملة ، وكان أثرها يخف كثيراً إلى أن تقوم تشريعات جديدة لتأكيدها .

ولعل أبلغ مثل لذلك أن ساويرس نفسه يعود فيمتدح المتوكل مدحاً كثيراً ، فيقول أنه فى أواخر أيام المتوكل استقامت أمور النصارى وأسبغت عليهم النعم العظيمة(٣).

*

ويظهر أيضاً مما كتبه ساويرس أن التميز بين المسلمين وأهل الذمة فى الزى ، لم يكن المقصود منه دائما الحط من شأنهم أو تحقيرهم ، فقد أمر الوزير الفاطمى

---

(١) ساويرس : ص ٧١ — ٧٢ (P.O.T.V

(٢) ساويرس : المجلد الثانى ج ١ ص ٤ (نشر الجمعية القبطية) .

(٣) ساويرس : المجلد الثانى ج ١ ص ١١ (نشر الجمعية القبطية) .

بدر الجمالى ، بأن يميز بين المسلمين والنصارى ، وبين النصارى واليهود فى اللباس. وكان ذلك بناء على مشورة مستخرج الجوالى (أى القائم بشئون الجزية)(١).

ولا يتطرق إلينا الشك فى أن هذا التمييز فى أثناء الخلافة الفاطمية المتسامحة ، وفى عهد وزير عرف بالتسامح الشديد، وبناء على مشورة المشرف على جمع الجزية، لايتطرق إلينا الشك فى أن هذا التميز كان لتيسر جمع الجزية المقررة على النصارى واليهود فى مصر .

المساجلات الدينية :

ونعرف مما كتبه ساويرس أنه كانت هناك مساجلات دينية فى بلاط الخليفة الفاطمى المعز لدين الله (٣٦٢ — ٣٦٥ هـ = ٩٧٣ — ٩٧٥ م) للمناظرة والتحدث فى الأديان السماوية الثلاثة والمفاضلة بينها . وكان ساويرس نفسه ممن جادل شيوخ المسلمين واليهود فى بلاط المعز(٢) .

*

ويشبه هذا ما وصل إلينا من رسائل ونصوص فى الدفاع عن الإسلام وأخرى فى الدفاع عن النصرانية تشهد بأن مناقشات دينية كانت تدور فى البلاط العباسى ، يسمح فيها لأعلام المسيحيين بعرض محاسن النصرانية ، ويتكلم أعلام المسلمين ، أو يكتبون فى الرد عليهم وبيان محاسن الإسلام .

ومن ذلك ، الدفاع الذى ألقاه تيموثاوس بطرك النساطرة (سنة ١٦٤ هـ = ٧٨١ م) أمام الخليفة المهدى .

ومنها رسالة كتبها عبد المسيح بن اسحاق الكندى تضم مساجلة قامت فى بلاط المأمون سنة (٢٠٤ هـ = ٨١٩ م) فى المقابلة بين محاسن الإسلام والنصرانية.

(١) ساويرس : المجلد الثانى ج ٣ ص ٢١٨ (نشر الجمعية القبطية) .
(٢) ساويرس : المجلد الثانى ج ٢ ص ٩٢ — ٩٤ (نشر الجمعية القبطية) .

وكتب على الطبرى المتوفى سنة ٢٥٠ هـ (٨٥٤ — ٨٥٥ م) كتاباً فى الدفاع عن الدين الإسلامى وشرح حقائقه سماه « كتاب الدين والدولة » .

The Book of Religion and State, edited and translated by A. Mingana, Manchester 1922-1923

وأشار المؤلف فى هذا الكتاب إشارات كثيرة إلى الكتاب المقدس ،ولعله اعتمد فى ذلك على نص التوراة السريانى أو على ترجمة عربية قديمة .

والواقع أن أقساماً من التوراة كانت قد نقلت إلى العربية فى نهاية القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى) عن السريانية أو اليونانية . ولكن أول ترجمة عربية هامة للتوراه كانت على يد سعيد الفيومى المصرى فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى (النصف الأول من القرن العاشر الميلادى) ولا تزال معتمدة عند اليهود المتكلمين بالعربية إلى اليوم .

ولا ريب فى أن هذه الترجمات مكنت بعض علماء المسلمين من مناقشة النصارى ومن بين أولئك العلماء الجاحظ .

والواقع أن العلاقة كانت طيبة فى معظم الأحيان بين المسلمين وأهل الذمة وأن التسامح الدينى الذى قام فى الامبراطورية الإسلامية لم تكن تعرفه أوربا فى العصور الوسطى بل أنها لم تعرفه إلا بعد الثورة الفرنسية .

الاسكندرية :

ونلاحظ أن ساويرس يعنى بالتأريخ للاسكندرية عناية خاصة . وليس هذا بمستغرب فالاسكندرية كانت مقراً لبطركية الأقباط . ولذا نراه يسميها فى معظم الأحيان المدينة العظمى .

*

ويذكر ساويرس أن الاسكندرية كانت تعرف باسم مدينة قيسرون ويقول

أيضاً أنها تسمى باللغة العبرانية مدينة آمون(١).

ويؤكد ساويرس فى مناسبات مختلفة ما نستشفه من سائر المصادر بأن الاسكندرية كانت منذ العهد اليونانى حتى عصر الأخشيديين تعتبر فى معظم الأحيان جزءاً مستقلا عن مصر حتى فى القضاء(٢).

*

و بهذه المناسبة عندما وصل إلى الأمير أحمد بن طولون ، تقليد بولاية جميع أعمال مصر من الخليفة العباسى ، يذكر ساويرس أن هـذا الأمر كان بخلاف ما جرت به العادة فانه لم يكن بين والى الاسكندرية ووالى مصر معاملة ولا خطاباً بل كانوا يتهادون الهدايا فيما بينهما وكانوا من تحت سلطان واحد(٣) .

كذلك يحدثنا ساويرس عن أهمية الاسكندرية التجارية وأنها احتفظت بتلك الأهمية بعد فتح العرب لها فظلت ميناءاً تجارياً هاماً تأتيها التجارة براً و بحراً(٤).

*

ولم يفت ساويرس أن يتكلم عن تحسين مدينة الاسكندرية . فالمعروف أن الروم كثيراً ما أغاروا فى العصر الاسلامى على الاسكندرية أو غيرها من الثغور . وقد أغار الروم على دمياط وسواحل مصر فى خلافة المتوكل على الله العباسى (٢٣٨ هـ / ٨٥٢م) وحين كان عنبسة بن اسحق واليها عليها . و يظهر أن غزو الروم فى تلك المرة كان وقعه شديداً ، ولذا نرى الخليفـة المتوكل ينفق الأموال

---

(١) ساويرس : ص ١٠٥ — ١٠٦ (P.O.T.I.) .

(٢) قارن سيدة إسماعيل كاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ص ٢١٩ .

(٣) ساويرس : المجلد الثانى ج ١ ص ٥٩ (نشر الجمعية القبطية) .

(٤) ساويرس : المجلد الثانى ج١ص ٥٣ (نشر الجمعية القبطية) .

فى بناء الأسوار والحصون فى تنيس ودمياط والاسكندرية وجميع الأعمال بالبرلس ورشيد وغيرها ، ونعرف من مؤرخ البطاركة أن هذه الأعمال تمت فى عهد خليفة عنبسة بن اسحق فى مصر وهو الوالى التركى يزيد بن عبد الله[١] (٢٤٢—٢٥٣هـ = ٨٥٦ — ٨٦٧م)

*

ويثنى ساويرس على الخليفة المتوكل ثناءاً كثيراً لأنه أمر بتوصيل القناة التى تجلب ماء النيل إلى داخل الاسكندرية . وكان الماء العذب لا يصل قبل ذلك إلى الاسكندرية إلا وقت الفيضان . وبعد حفر هذا الخليج أصبحت المراكب الكبار تصل إلى داخل المدينة وكثرت المراكب والتجار فى الاسكندرية كما زرع الناس الكروم والبساتين على جانبى القناة[٢] .

*

ويحدثنا ساويرس عن ثائر من سكان الاسكندرية من بنى مدلج قام بثورة فى أواخر عصر الولاة فى الوجه البحرى وانضم إليه جماعة كبيرة مقاتلة من أصحابه، ومن العربان ، وأخذوا يهاجمون عمال الخراج ويأخذون ما لديهم من أموال . ويذكر أنه لما زادت جماعته ، حاصر مدينة الاسكندرية ، ولكنه لم يستطع فتحها بأى وجه من الوجوه ، وذلك لوقوف حصونها حجر عثرة فى سبيل ذلك ، ولعدم وجود آلات لدك الحصون لدى الثوار ، ومع ذلك فإنهم حاصروها ومنعوا الميرة من الوصول إليها عن طريق البحر والبحيرة . ويذكر ساويرس أنه لما طال حصار الاسكندرية اجتمع رؤساؤها وتشاوروا مع واليها واتفقوا على احاطتها بسور كبير حولها . وقد اشترك فى بناء هذا السور أهل الاسكندرية ، إذ بنى كل صاحب دار أو أرض حائطاً أمامه ووصله إلى حائط جاره ، وبذلك أصبح للاسكندرية

(١) ساويرس : المجلد الثانى ج ١ ص ١٠ (نشر الجمعية القبطية) .
(٢) ساويرس : المجلد الثانى ج ١ ص ١٠ ، ١١ (نشر الجمعية القبطية) .

سور حولها وجعلوا له أبواباً ، ولم يكن يفتح إلا باب واحد فى المرة الواحدة وبذلك تحصنت الاسكندرية وأمن أهلها الأعداء .

ولما وصل والى مصر مزاحم بن خاقان (٢٥٣ — ٢٥٤ هـ = ٨٦٧ — ٨٦٨م) استطاع أن يشتت هؤلاء الثوار الذين كانوا قد اتخذوا مراكز لهم بين بنا وأبوصير فى الوجه البحرى فأعمل فيهم القتل بالسيف وأغرق آخرين وانهزم من بقى منهم فى الجبال بالصعيد(١) .

اللواتيون والشدة العظمى

ومن الأمور التى يوضحها ساويرس وتساعدنا على فهم الوضع الحقيقى للأمور ما يذكره عن الشدة العظمى التى حدثت أيام الخليفة المستنصر بالله الفاطمى .

فقد ذكر المؤرخون المصريون مثل ابن ميسر ، والمقريزى ، وأبى المحاسن ابن تغرى بردى ، أن الشدة العظمى كان سببها انخفاض ماء النيل وانتشار الوباء فى مصر حتى انعدمت الغلات من أرض مصر وأكل الناس البغال والحمير والميتة ثم أكل بعضهم بعضاً .

ولكن مؤرخ البطاركة يبين بوضوح أثر القلاقل والفتن فى إيجاد هذه الشدة ، فقد عمت الفوضى والحروب بين الجند وخاصة بين السودانية والأتراك ، فكانت القاهرة فى يد الجند الترك ، وكان الصعيد فى يد الجند السودانية ، وكانت الاسكندرية وجزء كبير من الدلتا فى يد فريق آخر من الجند التركية تساعدهم قبائل قيس ولواتة . ويبين ساويرس تسلط اللواتيين ، وهى قبائل بربرية الأصل ، على الريف ويذكر أنهم ملكوا أسفل الأرض أى الوجه البحرى ، وأصبحوا يزرعونه كما يريدون بلا خراج ولم يهتموا بحفر الترع أو عمل الجسور وانفردوا

---

(١) ساويرس : المجلد الثانى ج ١ ص ٣٩ — ٤٤ (بشر الجمعية القبطية) .

بالزراعة دون غيرهم وامتنعوا عن بيع الغلات ، وكانت النتيجة أن رزئت مصر بفترة مجاعة قاربت من سبع سنين عرفت بالشدة العظمى (٤٥٩ — ٤٦٥ هـ = ١٠٦٦ — ١٠٨٢م) .

*

وقد استطاع بدر الجمالى والى عكا الذى استدعاه الخليفة المستنصر لتولى الوزارة فى مصر ، أن يقبض على ناصية الحال فيهـا فأباد اللواتيين من الريف ، وسار إلى الصعيد ففتحه ثم عاد إلى مصر وأقام بها ورتب الأمور فيهـا كما كانت عليه فى السابق .

ويذكر ساويرس أن أميراً عرف بكنز الدولة كان قد ملك الصعيد الأعلى فلما وصل بدر الجمالى إلى مصر هرب كنز الدولة إلى النوبة فأرسل بدر الجمالى رسولا إلى ملك النوبة كى يسلم له كنز الدولة . وقد سلمه الملك لرسول بدر الجمالى الذى قتله وصلبه عنـد باب الحديد الذى يحدد ساويرس موقعه فيما بين القـاهرة المعزية ، وبين مصر أى الفسطاط أو مصر القديمة(١) .

فكرة الحروب الصليبية

وحين يحدثنا ساويرس عن الصليبيين وقدومهم إلى الشرق لا يعتبر أن هذه الحروب حرب بين المسيحية والاسلام . وإنما ينظر إلى الصليبيين كغزاة أعداء للشرق . ويعلق على امتلاكهم لبيت المقدس بأن الأقبـاط واليعاقبة سوف لا يستطيعون الحج لاختلافهم والصليبيين فى المذهب الدينى(١) .

(١) أنظر عن الشدة العظمى : ساويرس المجلد الثانى ج ٣ ص ٢٠٣ — ٢٠٥ (نشر الجمعية القبطية) .

(٢) ساويرس : المجلد الثانى ج ٣ ص ٢٤٩ (نشر الجمعية القبطية) .

هذه فكرة مجملة عن ساويرس ومنهجه فى الكتابة وأهم ماجاء فى كتابه مما يوضح تاريخنا القومى .

ولاشك أن المجال واسع للمؤرخين والجغرافيين واللغويين لدراسة كتاب تاريخ البطاركة وللاستفادة منه .

سيدة اسماعيل كاشف